خطبة صلاة الجمعة 6/ 12/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(السنة الأولى في المدينة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة: هذه هي الخطبة السادسة في سلسلة "**علمتني السيرة النبوية**"، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة، وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة والثالثة: جهاد الدعوة، والرابعة سَفَر الدعوة، والخامسة الهجرة والدعوة.

وعنوان خطبة اليوم: **السنة الأولى في المدينة**.

أيها الإخوة:

جاء في كتب السيرة: (وأول خطوةٍ خطاها رسول الله صلّى الله عليه وسلم بناء المسجد، ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء المسجد، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وساهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللَّبِن والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

وبنى بيوتاً إلى جانبه، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه صلّى الله عليه وسلم.

ثم آخى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت، فكانوا على ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75] رد التوارث، دون عقد الأخوة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي صلّى الله عليه وسلم: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقالوا: فتكفونا المؤنة، ونَشْرَكْكم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا.

وعقد النبي صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ومما جاء فيها: إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود. وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب).

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث السنة الأولى في المدينة دروس وفوائد يحتاجها كل منا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها ثلاثة أمور:

أولها: المسجد مركز حياة المسلمين.

ثانيها: الأخ الصالح عون الطريق.

ثالثها: الأصل في الإسلام التعاون مع الجميع.

أولاً: المسجد مركز حياة المسلمين:

أيها الإخوة:

أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وصوله المدينة المنورة بناء المسجد، ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى يلتقي ويتآلف فيه الجميع، ومركزاً لإدارة شؤون الناس، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

فالمسجد مهبط الملائكة، ومثوى عباد الله الصالحين.

المسجد بيت كلِّ تقي، ومنزل كلِّ صفي، ومأوى كلِّ ولي.

المسجد مُصلَّى يؤدي فيه المسلمون شعائر دينهم، وجمعية خيرية يتبادلون فيه الخير ويتعاونون على البر.

فالمسجد في الإسلام جامع، وهو مركز حياة المسلمين.

عندما نزح أهلُ القدس إلى دمشق لم يحبُّوا أن يُزاحِموا أهل الشام في مدينتهم، فاستوطنوا سفحَ جبل قاسيون، وهؤلاء المقادِسَة كانوا أتباع المذهب الحنبلي، أولُ شيء فعلوه في سفح جبل قاسيون بنوا مسجداً سُمِّي بـ (مسجد الحنابلة) ثم بنوا بيوتهم حولَ هذا المسجد.

ويتوسط (الجامع الأمويُّ) دمشق القديمة!

ويحدّث ابنُ كثير في كتابه الشهير (البداية والنهاية) في أحداث السنة السابعة عشر للهجرة أن سعدَ بن أبي وقاص عندما بنى مدينة الكوفة بنى أولاً مسجدَها، ثم أمر رامياً شديدَ الرمي أن يرميَ بسهمه من جهات المسجد الأربع، فحيث وصل السهمُ أمرَ الناسَ أن يرفعوا بيوتهم، وأمرَهم أن يَدَعُوا للطريق الرئيسة وُسْعَ أربعين ذراعاً، وللطريق الفرعية ثلاثين، وللشارع الصغير وللأزقة سبعة أذرع، وعمَّرَ داراً تلقاءَ محرابِ المسجد للإمارة والقضاء وبيت المال.

وهكذا تجد المسجدَ مركزَ مدن المسلمين، ومركَزَ قُرى المسلمين، ومركز أحياء المسلمين؛ لأنه مركز حياتهم.

المسجدُ هذا نادِينا	واللهُ تعالى يُنَادِينا
ويرغِّبُنا ويحبِّبُنا	أعبادِي كونوا مُجيبِينَا
وتآخَوا فيما بينَكُمُ	فاللهُ يُحِبُّ تآخِينا
يا قَومِي عودُوا لمسجدِكُمْ	فتعودَ لَكُمْ طورُ سِينا
وتعودُ الضفّةُ والقُدْسُ	وتَسُودُوا اليومَ فِلَسْطِينا
إن الإسلامَ هو الشرعُ	وعليه سَادَ أوَالِينا

كان الرجلُ إذا أسلم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَرَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يلحقَ بمسجد حيِّه، فيلحقَ بالصحابي الفلاني حتى يُعلِّمه القرآنَ والإسلام.

وبالمناسبة: كان عددُ المساجد في المدينة المنورة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرَ من عشرة مساجد، المسجدُ الجامع هو مسجدُ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهناك مساجدُ أخرى موزَّعة في المدينة تقوم بواجب التربية والتعليم.

فأنت -أيها المسلم- بحاجة إلى بيت تأوي إليه، وأنت بحاجة إلى عملٍ تسعى عليه، وأنت بحاجة أيضاً إلى مسجد تحنُّ إليه، وتتصل بالسماء فيه.

أنت بحاجة إلى بيتٍ لراحة جسدك، وأنت بحاجة إلى مسجدٍ لراحة روحك.

أنت بحاجة إلى عملٍ للكسب المادي، وأنت بحاجة إلى مسجدٍ للكسب الإيماني القرآني.

أخرج البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح»** وأخرج النسائي عنه رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«حين يخرج الرجل من بيته إلى المسجد فرجل تكتب حسنة، ورجل تمحو سيئة»**.

ثانياً: الأخ الصالح عون الطريق:

في سورة الفاتحة نقرأ قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6، 7] فلماذا قال القرآن في وصف الصراط المستقيم أنه صراط الذين أنعمت عليهم ولم يقل إنه صراط الله، مع أنه صراط الله وهديه وشرعُه؟ّ!

قال العلماء: ليُذَكِّر السالك بإخوانه الذين سلكوا الطريق قبله ومعه فيستأنس ولا يستوحش.

وإنّ الأخ في الله والصاحب الخيّر عونٌ لك على الطاعة ودرءٌ لك من المعصية، إن ذكرتَ أعانك، وإن نسيتَ ذكرّك، يدعو لك في ظهر الغيب، وينصح لك إن رأى العيب.

تكون معه في الظل يوم الحاقة **«ورجلان تحابا في الله اجتمعا عيه وافترقا عليه»** [البخاري] ويكون معك في يوم القارعة ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، تستوجب بصحبته ومحبته محبة الله **«وجبت محبتي للمتحابين فيّ»** [الموطأ] وتنال به أقوى عرى الإيمان **«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»** [أحمد].

فقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عقد مؤاخاة ليتخذ كلّ مسلمٍ يريد سلوكَ دربِ الله أخاً له في الله يعينه في هذا الطريق، روى الإمام البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إنما مَثَلَ الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحاملُ المسك إما أن يعطيك، وأما أن تبتاعَ منه، وإما أن تَشَمَّ منه رائحةً حسنة، ونافخُ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»**.

ثالثاً: الأصل في الإسلام التعاون مع الجميع:

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وثيقة المدينة يعاهد اليهود على أن لهم دينهم وللمسلمين دينهم، لا يُكرَهون على دينهم ولا على أموالهم، وعلى أن كلا من المسلمين واليهود مواطنون في المدينة يذودون عنها ولا يؤوون محدثاً إليها، وأنهم فيها يتعاونون على الخير ولا يعين أحد منهم الآخر على الإثم.

فالأصل في الإسلام التعاون مع الجميع واللقاء مع الآخر ما دام هذا الآخر يحفظ العهد ولا يكيد للإسلام والمسلمين ولا يعين عدواً عليهم، بل إنّ الإسلام يدعو المسلم إلى الإحسان إلى الناس جميعاً ما استطاع لذلك سبيلاً.

(مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قومٍ وعليه سائل يسأل -شيخٌ كبيرٌ ضرير البصر-، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: من أيِّ أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسِّن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثمَّ أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضُرَبَاءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثمَّ نخذله عند الهرم).

وجاء في كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل الحيرة: (وجَعَلتُ لهم: أيُّما شيخ ضَعُف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه طُرِحَت جزيته وعِيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة).

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث السنة الأولى في المدينة، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أنّ المسجدَ مركزُ حياةِ المسلمين، وأنّ الأخَ الصالح عونُ الطريق، وأنّ الأصلَ في الإسلام التعاونُ مع الجميع.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين